

التحويلات في بنية القبيلة في شرق سورية (منذ الاستقلال إلى سلطة قسد)



الباحث مناف الحمد
أيلول 2023



معهد
POLITICS & SOCIETY | السياسة والمجتمع
Institute



تمهيد

يمثل تعريف القبيلة تحديًا لعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيين والمؤرخين. فهو لا يزال مفهومًا غير محدد المعالم؛ لما يمكن أن ينطوي عليه من تجليات تشمل مجموعات مختلفة، وبنى اجتماعية متنوعة وفقًا لمعايير متعددة.

فالتعريف الأنثروبولوجي التقليدي للقبيلة يحددها ببساطة بأنها: مجموعة من الناس (تتراوح من ألف إلى مئات الآلاف) لها أصل وتاريخ مشتركين وتجمع بين أعضائها رابطة دم.¹

ولا ريب أن هذا التعريف ينجح في مقارنة بُعد من أبعاد القبيلة، ولكنه يخفي أكثر مما يظهر من واقعها؛ لأنه لا يأخذ في الحسبان جدل بنية القبيلة مع تكوينها، وهي عبر هذا الجدل قد تعرضت لتحويلات أحدثت فيها تغييرات داخلها، وفي علاقتها مع المحيط. ولهذا فإن هذا التعريف تعريف استاتيكي لا يملك إمكانيات كشف ما انطوت عليه بنية القبيلة من تغييرات.

فقد طرأت تحولات على بنية القبيلة مثلًا بعد النصف الثاني من القرن الماضي بعد أن دمجتها السلطات المركزية في الهياكل المركزية للدولة، كما اهتزت رمزية شيخ القبيلة الذي طرأ تحول على علاقته بأبناء قبيلته بعد الانتقال من اقتصاد الغزو إلى اقتصاد السوق، وهو تحول قوى علاقته بالدولة وبتجار المدن، وأفقده صفة الملاذ الذي يلوذ به أبناء القبيلة، ومن التحويلات المهمة أيضًا دخول الدولة في حكم البعث كطرف ثالث بين الشيخ والفرد القبلي وهو ما أرحى سلطة شيخ القبيلة، وهز صورته في نظر أبنائها.

وقد تفاقمت محاولات تغيير البنية وتفتيتها بعد استيلاء البعثيين على السلطة عام 1963 وتنفيذهم إصلاحًا زراعيًا جرد شيوخ القبائل من ممتلكاتهم، وأفقرهم، ودفع بعضهم إلى مغادرة البلاد. كما شهدت القبيلة تحولات كبرى في بنيتها بعد انقلاب حافظ الأسد، وبسبب سياسات الوريث، وكانت التحويلات قد أخذت أشكالًا أخرى بعد الثورة السورية، وما تعاقب على القبيلة من سلطات مختلفة.

¹ Rudayna Al-Baalbaky, Ahmad Mhidi, TRIBES AND THE RULE OF THE "ISLAMIC STATE": THE CASE OF THE SYRIAN CITY OF DEIR EZ-ZOR, Beirut, Issam Fares Institute for Public Policy and International Affairs, 2018, p.9



أولاً- وصف مختصر للوضع الذي انقلب عليه البعثيون

بالحفر أكثر بحثاً عن نتائج التوسع في اقتصاد المنطقة القائم في سياق عدم التدخل في الخمسينيات، يمكن ملاحظة نتائج ثلاث:²

أولاً: امتلاك فئة صغيرة مساحات كبيرة من الأراضي، واستخدامهم أقارب لهم في العمل في هذه الأراضي كفلاحين مقيمين. وينطبق هذا بشكل خاص على الأراضي المزروعة بالقطن على طول نهري الفرات والبليخ، وهو ما انبثق عنه تشكيلات مختلطة من إقطاعية ورأسمالية زراعية.

ثانياً: ما أحدثه امتلاك هذه الفئة لمساحات كبيرة من الأراضي من تفاوت حاد في الثروة. قسّم المجتمع إلى طبقتين: مالكة منفصلة عن الفلاحين، وفلاحون لم يطرأ على أوضاعهم المادية تحسن ذو شأن.

ثالثاً: وما أحدثه ما سبق من تغير سيكولوجي لدى شيوخ القبائل الذين باتت مصالحهم الشخصية طاغية على أي مصلحة أخرى، وهو ما كرّسه تفاعلهم مع تجار المدن.

كل هذا أنتج نخبة أطلق عليها اسم "شيوخ القطن": لوصف فئة بسماوات مادية واجتماعية وثقافية أوسع من سماوات شيخ القبيلة التقليدي.

كانت المجتمعات القبلية شبه المستقرة قبل الثورة الزراعية في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي، مثل العفادلة وهي جزء من قبيلة البوشعبان، تقدم دعمها لبيت الشيخ من خلال ما سمي بـ: "اقتصاد الهدايا". وهي هدايا لم يعترف بها بشكل صحيح -حسب تعبير بورديو-³؛ لأن الاعتراف بها كان محلّياً بعدّها حقاً لبيت المشيخة. وقد ساهم ذلك النوع من الاقتصاد في تمتين الترابط

² Richard T. Antoun; Donald Quataert, Syria: Society, Culture, and Polity, State University of New York Press, Albany, NY, 1991, p. 68.

³ P. Bourdieu, outline of a Theory of Practice, translated from French by Richard Nice (Cambridge: Cambridge University Press, 1977), p.172.

الاجتماعي والاقتصادي بين عائلة الشيخ وأبناء قبيلته. ولكن بحلول منتصف الخمسينيات أصبح هؤلاء الشيوخ أنفسهم رأسماليين زراعيين. فقد أصبح الشيخ، مستقلاً اقتصادياً، وصار يضيف الشرعية على هيمنته بسلوك استهلاكي جديد، فاقتنى أحدث السيارات، وبنى المضافات، واستخدم الخدم في منازلهم. ولعلّ هذا ما يفسر طلب البعثيين من الفلاحين في أواخر الستينيات من الدولة إغلاق المضافات، أو الاستيلاء عليها، وصرحوا بأنهم يرون فيها رموزاً للنظام القديم.⁴

ثانياً- انقلاب البعثيين على الحالة السائدة

بعد تطبيق قوانين الإصلاح الزراعي التي بدأت مع رئاسة جمال عبد الناصر للجمهورية المتحدة، ثم تتابعت مع حكم البعث الأول والثاني، أصبح الشيوخ التقليديون الأثرياء عاجزين اقتصادياً عن طريق تدمير قاعدتهم المادية، وعاجزين سياسياً عن طريق حرمانهم من أي مشاركة فعالة في العملية السياسية.⁵ يصف أحدهم الوضع قائلاً:

"كنا في الجنة والآن نحن في الجحيم"، وسمع شيخ العفادلة إحدى أكبر العشائر في الرقة فيصل الهويدي نفسه يقول أثناء لعب الورق:

" بهالأيام، فلاحتنا لعب الورق".⁶

وهي تعبير عن دور الشيوخ الهامشي في الوضع الجديد. ويقول شيخ آخر: إن النقابات لم تترك لهم محلاً، فالجميع أصبحوا اتحاديين: أي منضمين إلى اتحاد العمال، أو الفلاحين، أو اتحاد الطلاب، أو الاتحاد النسائي.

يقدم حدث عام 1966، المعروف محلياً باسم "انقلاب العقيد حاطوم"، توضيحاً جيّداً للوضع الجديد: ففي 8 أيلول/سبتمبر 1966، حاول العقيد سليم حاطوم أن يقود حركة انقلابية داخل الحزب الحاكم. وبعد إفشال محاولته حاول النظام إحكام قبضته بصورة أكبر وعلى كل شبر، فصدرت أوامر لمسؤولي الحزب باعتقال واستجواب زعماء القبائل وغيرهم ممن يشتبه في أنهم يشكلون تهديداً محتملاً للنظام.

⁴ Op.cit., p. 69-70.

⁵ See S. M. Kaylani, "The Role of Agriculture in the Development of Syria, 1945-1960" (M. A. thesis, American University of Beirut, 1964, p. 44.

⁶ Richard T. Antoun; Donald Quataert, op.cit., p. 72.



ونتيجة لذلك، تولت السلطات المحلية -في الرقة كمثال- التي يسيطر عليها الحزب الأمر بنفسها.⁷

يقول أحد المتعاطفين مع شيوخ القبائل إن الاعتقالات العشوائية والجماعية كانت في الغالب مدفوعة بالتعسف الشخصي للمسؤولين المحليين، وضغائنهم ضد رموز الوضع القديم. ولم يستطيعوا إدانة الأخيرين سوى بأنهم ممتعضون من الوضع الحالي، وهو ما انعكس بدوره في نفور أكبر من طرف شيوخ القبائل من الوضع الجديد وعداء تجاهه وإحساس متزايد بالعجز.

ولأن نظام البعث قد دأب على تصنيف الدول العربية إلى رجعية وتقدمية، فقد كان من بين أسئلة المحققين لشيوخ القبائل مثلاً:

"لماذا تذهب إلى السعودية ودول الخليج العربية الأخرى؟ كم مرة؟ ما هي روابطك مع هذه الأنظمة الرجعية؟" ويقال إن أحدهم أجاب أحدهم بصراحة على سؤال المحقق: "لقد جعلتمونا فقراء، ولذلك فنحن نذهب إلى الخليج لكي نتسول، قدّموا لنا ما يكفيننا لكي نكف عن التسول من الخليج". دفعت هذه الممارسات الكثير من شيوخ القبائل إلى مغادرة سورية في أواخر الستينيات والإقامة في المملكة العربية السعودية وفي الأردن وغيرهما.⁸ ومن أهم الرموز القبلية التي تعرضت للمضايقة شيخ قبيلة الجبور عبد العزيز المسلط الذي شدّ رحاله إلى العراق وأقام هناك لفترة من الزمن.

وبالعودة إلى إجراءات تنفيذ الإصلاح الزراعي، فقد وزعت أراضي بعض العوائل المالكة على عشرات الفلاحين، وأنشئت جمعيات فلاحية لإدارة هذه الإجراءات. وقد أصبحت السيطرة على هذه الجمعيات التعاونية محلّ تنافس جديد بين العوائل في الأرياف، وهو تنافس تمكّن من الانتصار فيه أفراد القرية من خارج العوائل المالكة القديمة؛ بسبب كثرتهم من جهة، وبسبب توطيدهم علاقات متينة مع الحزب الحاكم؛ الأمر الذي وسع الخرق في مجتمع القرية، وأحدث استقطاباً يصعب حلّه. أفقد القرية طابعها القديم القائم على التعاون والتكاتف، كما قسم موقع القيادة فيها -الذي أفرغ من الشيخ- وتحوله إلى موضع يشغله أكثر من متنافس بحسب قوة ارتباطه بمسؤولي الحزب الحاكم.⁹

⁷ انظر: مناف الحمد، القبيلة والسياسة في سورية، مركز حرمون، 1/11/2021، <https://2u.pw/hFnHMP>

⁸ Richard T. Antoun; Donald Quataert, op.cit., pp. 72-73.

⁹ Ibid., p. 75

وبالطبع كان الطرف الأضعف في هذا الوضع الجديد هم المالكين السابقين الذي جُففت موارد ثروتهم، ثم عُزلوا عن الحياة السياسية. وقد سرى تقليص الموارد إلى الأجيال اللاحقة حيث عملت تشريعات الإرث في الشريعة الإسلامية على تقليص أكبر للحيازات، وهو ما انعكس في ظاهرة الأسر النووية بدل الأسر الكبيرة وتوجه هذه الأسر الصغيرة إلى الاهتمام الضيق المؤطر بحدود العائلة.¹⁰

أما الفلاحون، فقد حصلوا على مكاسب حسّنت ظروف حياتهم المادية نوعًا ما، ولكن مع ثمن هو التماهي مع النظام الحاكم الذي يتحدر قاداته من أصول ريفية وهو ما يصفه أحد الباحثين بقوله:

"يوجد عدد كبير من الفلاحين القادرين في الوقت الحاضر على التماهي مع النخبة الحاكمة التي يعرف كل شخص أن لها أصولًا فلاحية. لقد حسّنت النظام الحالي بشكل ملحوظ ظروف هذه الفئات الاجتماعية الكبيرة الأكثر اضطهادًا. علاوة على ذلك، لا يزال الفلاحون المصدر الرئيسي الذي يأتي منه كوادر الجيش والحزب والمنظمات الشعبوية. لقد خطا الفلاح خطوات كبيرة إلى الأمام منذ اليوم الذي فتح فيه أكرم الحوراني مكتبًا صغيرًا في دمشق وعمد إلى متابعة طلبات الفلاحين حتى يومنا هذا، عندما أصبح من الصعب العثور على حضري واحد في قلب النخبة السياسية العسكرية الحاكمة".¹¹

ظهر البعثيون الجدد في أواخر الستينيات كقوة تملك السيطرة الكاملة على كل وسائل وأشكال العنف في المجتمع السوري. ولكن اعتمادهم المفرط على استراتيجيات التعبئة أضعفهم، وقلّص قدرتهم على تحقيق تنمية اجتماعية واقتصادية كبيرة. وهو ما وضع شرعية النظام على المحك؛ مما أحدث أزمة داخل النظام، وجدت من ينهيها في تيار قاده حافظ الأسد.

ثالثًا- حافظ الأسد (نزع التطرف بتكريس الفساد والولاء)

انتهج حافظ الأسد نهج التخلّي عن الإصلاح الجذري مقابل ما أسماه: "الوحدة الوطنية"، وقد تجلّى ذلك في نهج اقتصادي يهدف إلى جعل القطاعات الاشتراكية

¹⁰ Ibid., p. 76.

¹¹ Kulit al-Khuri, layla wahida (Beirut: al-Maktabal al-Tijari, 1961)



هي القوى المسيطرة في الريف. فانقسم الاقتصاد إلى قطاعين: واحد من الوحدات الرأسمالية الكبيرة التي تسيطر عليها الدولة، والآخر من الوحدات الرأسمالية الأصغر الخاضعة لسيطرة خاصة.¹²

قُصت الاتجاهات الراديكالية داخل المنظمات الشعبية (اتحاد العمال، اتحاد الفلاحين، إلخ) إلى حد ما. وقد بات طموحًا لدى الأثرياء تولي مناصب داخل هذه المنظمات، ولم يدخر المسؤولون جهدًا في تلبية هذا الطموح، فمنحوا الأثرياء من القبليين معاملة تفضيلية، وهو ما عزز الفساد، ولما كان نظام الأسد قاصدًا تكريس الفساد، فقد تمكن بالمقابل من جعل الفساد نهجًا كان من نتائجه نزع التوجهات المتطرفة.¹³

وقد بات ظل هذه المنظمات حاضرًا في حياة الناس اليومية، حيث إنها باتت تتعامل مع الشؤون الاجتماعية والثقافية اليومية، وكان ذلك تدخلًا مقصودًا من أجل إزالة تسييس صوتها، وأصبحت مكانًا يقصده قسم كبير من أبناء القرى في وادي الفرات، ويقصدون الانضمام إليه. فهو مكان يتيح قدرًا من النفوذ، ولا يدخل المنتسب إليه في دهاليز السياسة الممنوع الاشتغال فيها في ظل نظام الاستبداد.

منذ منتصف السبعينيات خفّ التوتر بين النخب التقليدية، ومجموعات النخبة الجديدة، وقد كان ذلك نتيجة طبيعية لسياسات الأسد الأب البراغماتية التي حشرتهم في مؤسسات لا مكان فيها لمعايير النسب القبلي، ولا لسلم تفاضلي آخر ما خلا درجة الولاء للنظام السياسي، والحزب الحاكم، وثمة مقارنة أجراها أفراد النخب القديمة بين الوضع في تلك الفترة، وبين الوضع السابق، وهي مقارنة كان للوضع الجديد الأفضلية فيها؛ لأنه وضع لا يهدف إلى اجتثاث كل مظهر قبلي كما حاول سابقوه، ويقدم بعض المزايا لرموز قبلية معروفة، حيث عمد حافظ الأسد إلى تثبيت شيخ العكيدات، وشيخ البكاره، وهما أكبر قبيلتين في المنطقة، وشيوخ آخرين في البرلمان، وهو مكان يعوض شيخ القبيلة قدرًا من هيئته التي فقدتها.¹⁴

¹² See sources cited in Y. Sadowski, "The Knife's Edge: A study of the Failure of Liberalization in Syria", unpublished seminar paper (Los Angeles: University of California at Los Angeles, 1978).

¹³ Op.cit., p. 78.

¹⁴ Ibid., pp. 78-79.



وكان من ضمن السمات الرئيسية في علاقة نظام الأسد مع القبائل استخدامه لها في المواجهة العنيفة مع الإسلاميين في بداية ثمانينيات القرن الماضي، حيث وعدهم في مؤتمر استثنائي للفلاحين بأن يكونوا أصحاب القرار في كل ما يتعلق بالأرض والزراعة مقابل تصديهم للعدو الطبعي، كما استخدمهم من أجل تخفيف السمة الكردية في منطقة الجزيرة، فعمد إلى توطين جماعات من عشيرة "البوشعبان" ممن فقدوا أراضيهم؛ بسبب بناء سد الفرات في قرى تقطنها أكثرية كردية، وهو ما سمي بـ "مشروع الحزام العربي" الذي كان مخطّطاً له منذ عام 1962.¹⁵

بعد قمعه لانتفاضة الطليعة المقاتلة، وهي الجناح العسكري للإخوان المسلمين عام 1982 تزايد وجود أبناء القبائل في العديد من الوزارات المهمة¹⁶، ونواف الفارس ابن بيت مشيخة عشيرة الدميم التي تمثل أحد أهم فروع قبيلة العكيدات مثال بارز، حيث ظل رئيساً لفرع الأمن السياسي في اللاذقية لسنوات طويلة، ثم تقلب في المناصب بعدها إلى حين انشقاقه بعد اندلاع الثورة السورية.

وإذا كان مثال نواف الفارس المذكور معبراً عن مقايضة حافظ الأسد الولاء لنظامه ببعض المكتسبات المقدمة لأبناء القبائل، فإنه لا يكفي لوصف براغماتية الأسد الأب الذي اعتمد في أمثلة أخرى على أبناء قبائل مغمورة، وأبرز مثالين على ذلك فايز النوري الذي ظل لفترة طويلة رئيساً لمحكمة أمن الدولة، وكان يمثل بقسوة بالغة جبروت النظام، وشدّته في تعامله مع المتهمين، وفي أحكامه التي يصدرها. وفايز النوري من أقلية في مدينة دير الزور يقول أفرادها إنهم قادمون من حويجة العبيد في العراق، وهو انتماء صار الديريون يتندرون عليه بالقول: إن كل من لم يعرف له نسب قبلي نسب نفسه إلى حويجة العبيد. أما المثال الثاني فهو ناجي جميل الذي كان قائداً للقوى الجوية في بدايات عهد الأسد الأب، وكان رفيقه الذي شدّ أزره منذ البداية، وهو ينتمي إلى عشيرة صغيرة من عشائر المدينة تدعى عشيرة "الجوالغة"، ينسب أهل المعرفة بالأنساب أصولها إلى الطائفة الإسماعيلية.¹⁷

¹⁵ رايموند هينبوش، مرجع سابق، ص. 319.

¹⁶ Haian Dukhan, Tribes and Tribalism in the Syrian Uprising, op.cit., p. 6

¹⁷ حوار مع ناشط ساسي من وجهاء قبيلة البكير بتاريخ 2021-9-13.



استمرت سياسة الاستزلام في عهد الأسد الابن، ولكنها برزت بشكل فاقع أكثر. فقد ظهر في قيادات الجيش والحزب شخصيات تفاخر بانتمائها القبلي مثل فهد جاسم الفريخ وزير الدفاع الذي ينتمي إلى قبيلة الحديديين، ومحمد سعيد بخيتان، وهو من أرومة قبلية، وكلاهما حاولا أن يجدلا صلات قوية بين مجتمعاتهما القبيلة، وبين النظام أكثر متانة من السابق.

انتهج بشار الأسد سياسات نيو ليبرالية كان لها أثر بالغ السوء على مناطق القبائل، وتحديداً في شرق سورية، فبين عامي 2003 و2004، تحولت نصف الآبار من ضحلة إلى عميقة، وضرب الجفاف الشديد المنطقة في عامي 2007 و2008، وجرى تحرير أسعار الأسمدة في عام 2008، وفشلت السياسة الهادفة إلى ترشيد الري خلال السنوات السابقة. كل هذا أدى إلى فشل جهود الإصلاح الزراعي، وتملّح جزء كبير من الأراضي المخصبة، والسماح بالاستثمار الزراعي دون أي حد لملكية الأراضي في عام 2007، بالإضافة إلى مشاركة الشركات متعددة الجنسيات في صناعة المواد الغذائية في سورية. في عام 2010، عدّت الجزيرة الفراتية أفقر منطقة في سورية، مما أدى إلى زعزعة استقرار الهياكل القبلية في دير الزور التي باتت تتطلع آنذاك إلى تغيير جذري في السلطة المركزية في دمشق.¹⁸

بين الاستمرار في سياسة الأب، وبين التدمير الذي ألحقته السياسات النيو ليبرالية تغايرت المواقف داخل القبائل عقب اندلاع الثورة عام 2011 بين مؤيدين للنظام رافضين ما سموه -باستخدام مفردات النظام- مؤامرة خارجية وتدخلات إقليمية، وبين ناقلين على النظام لأسباب ليس آخرها ما ألحق بمناطقهم من دمار وإفكار، فضلاً عن إرث من التهميش للقبائل، وإضعاف لمكانتها ومكانة رموزها.

يرى الباحث أن النظام لم يقدر بصورة واقعية ما جرى من تحولات، فعدا عن الآثار المدمرة لسياسات النظام الاقتصادية، كان ثمة تغيرات كامنة في مواقف أبناء القبائل من معارضي النظام مسبب عن عوامل عديدة:

- زيادة نسب المتعلمين وخريجي الجامعات زيادة كبيرة؛ الأمر الذي صنع أنموذج فرد قبلي مغاير للأنموذج الذي تقدمه الصور النمطية عن قبلي جاهل، قابل للخضوع لأي سلطة.

¹⁸ Rudayna Al-Baalbaky, Ahmad Mhidi, TRIBES AND THE RULE OF THE "ISLAMIC STATE": THE CASE OF THE SYRIAN CITY OF DEIR EZ-ZOR, Beirut, Issam Fares Institute for Public Policy and International Affairs, 2018



- اضطرار نسبة كبيرة من أبناء القبائل إلى البحث عن رزقهم خارج الحدود، وما نتج نتوجًا طبيعيًا عن ذلك من عقدهم المقارنات بين أبناء الدول التي رحلوا إليها، والذين يرفلون في نعيم حياة رخية مستقرة، وبين حالتهم البائسة، وهم قادمون من بلدان فيها من الثروات المنهوبة ما يمكن أن يجعلهم يعيشون حياة أكثر رخاء.
- انفكاك أبناء القبائل من أسر التصور الإقليدي للزمان والمكان المطلقين؛ بسبب ثورة الاتصالات التي غيرت هذا المفهوم، نحو مفهوم نسبي للزمان والمكان؛ وهو ما جعل قدرة النظام التوتاليتاري على حبس رعاياه بين حدود واضحة لهما، وترسيخ أيديولوجيا النظام كحقيقة مطلقة أمر دونه خبط القتاد.

رابعًا- القبائل بعد الاحتجاجات السلمية

1- القبائل وجبهة النصرة

تشكلت فصائل الجيش الحر في قرى ريف دير الزور في أواخر عام 2011 كرد فعل على عنف النظام 2011، ولم تكن فصائل الجيش السوري الحر ذات طابع عشائري صرف، ولعلّ السبب في عدم اتخاذها هذا الطابع هو استقلاليتها الاقتصادية بفضل الدعم المالي الذي كانت تتلقاه من دول داعمة، ومن أفراد من أبناء القبائل يقيمون في بعض دول الخليج. وقد تمكنت من توجيه ضربات قاسية للنظام في ريف دير الزور الشرقي تحديدًا؛ ما دفع النظام في نهاية عام 2012 إلى الانسحاب من تلك المنطقة.

كان ظهور جبهة النصرة في ريف دير الزور الشرقي نتيجة عوامل ممهدة كثيرة أهمها وجود تربة جاهزة لظهورها ممثلة بحالة سلفية جهادية سبق وجودها الثورة السورية، وبرزت بحدة عقب الاحتلال الأمريكي للعراق الذي دفع الكثيرين من أبناء القبائل إلى الانضمام إلى مجموعات جهادية مقاومة للاحتلال.

كانت نواة الوجود غير المعلن لجبهة النصرة على يد أبناء غريبة الغربية التي تقع على طريق الحسكة على بعد حوالي 70 كيلو مترًا من المدينة، وهم من عشيرة المشاهدة، ويعمل معهم أفراد من غريبة الشرقية من عشيرة البوكامل، اثنان منهم قادمان من الجهاد في العراق، والآخران من طلقاء سجن صيدنايا. وقد



اقتحم النظام غربية بعد استهدافهم حاجراً في مركدة وقتل عدداً من أعضاء الجبهة في أواخر 2011¹⁹، وقد كان مركز النصر في قرية الشحيل التي ظهر فيها الفكر السلفي منذ زمن ليس بالقصير؛ بسبب الاحتكاك بالجماعات السلفية في الخليج، وخصوصاً السعودية، ولم يكن هذا السبب الوحيد لاختيار النصر الشحيل قاعدة لها، وإنما ثمة سبب آخر متمثل في رمزية الشحيل العشائرية النابعة من كونها موطن نسبة كبيرة من قبيلة البوكامل، كبرى فروع العكيدات. وقد كان ثمة سبب آخر للتوافق بين النصر والشحيل، وهو أن أبناء الشحيل شديدي البأس ذوو نزوع حربي.

ولعلّ منح الشحيل ميزات كبيرة من طرف الجبهة يصلح عاملاً تفسيرياً لما اعتمل في قلوب أبناء العشائر والقبائل الأخرى من حقد على النصر لاحقاً، وما أفضى إليه هذا الحقد من انضمام الكثيرين لداعش انتقاماً من النصر.²⁰

ولا بد من الإشارة إلى أن تعامل وجهاء العشائر مع جبهة النصر كان قائماً على دافع عشائري؛ لأن النصر في جسمها الأساسي تنظيم محلي يكاد وجود الغرباء فيه يكون معدوماً أو بالغ الصغر؛ الأمر الذي صنع خطأً مدنياً من ضمن قبيلة البو كامل أحد فروع قبيلة العكيدات داعماً للنصرة يساعدها في نشاطها وتمدها، ولم يكن سلوك النصر قد اتخذ شكل الاعتماد الصريح على أفراد العشائر إلا بعد خلاف النصر مع داعش، ورفضها أن تكون فرعها السوري.²¹

وقد اعتمدت النصر أساليب مختلفة في تعاملها مع القبائل يمكن حصرها في أشكال ثلاثة:²²

- تجنيد أفراد من قبائل يعسر اختراقها، ومثال عامر الرفدان من قبيلة البكير هو المثال الأبرز، فقد ساعدته جبهة النصر في الاستيلاء على معمل غاز كونكو الواقع ضمن نفوذ عائلته.²³

¹⁹ مقابلات متعددة مع ناشطين من أبناء المنطقة بتاريخ: 15-8 و 27-8-2021.

²⁰ حوارات أجراها الباحث مع ناشطين من أبناء المنطقة عاصروا المرحلة بتاريخ 15-8-2021.

²¹ حوار عبر الإنترنت مع أحد وجهاء قبيلة البكير بتاريخ 8-8-2021.

²² TRIBES AND THE RULE OF THE "ISLAMIC STATE": THE CASE OF THE SYRIAN CITY OF DEIR EZ-ZOR, OP.CIT., P. 34.

²³ مقابلة مع أحد أبناء قبيلة البكير بتاريخ 15-8-2021.



- استقطاب أفراد من عشائر سهلة الاختراق وافتتاح مقرات لهم بعد تزويدهم بالسلاح، كما حصل في قرية سبيخان مع أفراد من عشيرة الشويط.

- إقامة تحالفات مع عشائر لديها فصائل عسكرية، كما حدث في تحالف النصر مع فصيل من قبيلة الشعيطات (من فروع العكيدات الكبيرة) في شن هجوم على منازل الرفدان المذكور آنفًا في قريته جديد عكيدات بعد انشقاغه عن النصر ومبايعته لداعش.

يتميز أبناء قبيلة الشعيطات بالشراسة، وكانت جرائم القتل ظاهرة مألوفة في مناطقهم، وقد كانت فصائلها ضمن الجيش الحر من أقوى الفصائل، ولم يحصل احتكاك بين النصر والجيش الحر من أبناء الشعيطات إلا أن الواقع تغير بدخول داعش الذي قوى أواصر التحالف مع النصر في مواجهة داعش.²⁴

وكان وجود النصر شبه معدوم في الخط الغربي الذي تقيم فيه قبيلة البوسرايا؛ لأسباب منها البعد الجغرافي، والأهم أن التقارب كان قائمًا بين بوسرايا الخط الغربي وبين أحرار الشام، وهو التنظيم الذي كان مركزه في الرقة التي تمثل قبيلة البوسرايا واحدة من مكوناتها القبلية البارزة.²⁵

انتمى قسم من أبناء البوسرايا إلى الأحرار فعندما تأسست الأحرار منتصف 2012 كان لها قسمان: شرقي في الصبحة من قرى الخط الشرقي للجزيرة، والآخر غربي في خط البوسرايا أسسه شخص يدعى أبا البراء من أبناء البوسرايا الذي تعرف على التنظيم عن طريق صديق له من البصيرة، وكان يتبعه من أبناء عمومته حوالي أربعين شخصًا.²⁶

وفي حادثة كشفت عن قصور في إدراك البنية العشائرية كان أبو قسورة، وهو من قيادات النصر من المهاجرين قد حاول أن يضبط سلوك بعض السفهاء من أبناء قرية المسرب عن طريق احتجاز بعض الأفراد والسيارات، فلقى حتفه على يد أفراد من أبناء القرية، وهم ينتمون إلى فرع العساف من البوسرايا حدث هذا منتصف عام 2013، وكان سببًا في انتقام قايس من القرية، حيث هاجمت النصر القرية بالسلاح

²⁴ مقابلات متعددة، مرجع سابق.

²⁵ مقابلة مع وجهاء من انتماءات قبلية مختلفة بتاريخ 15-8-2021.

²⁶ مقابلة مع أحد مؤسسي أحرار الشام في خط الجزيرة بتاريخ 15-8-2021.

الثقل، وقتلت مدنيين، وقتل منها أفراد بارزون من قرية الشحيل، وهو ما جعل اللوم ينصب عليها من طرف عموم المجتمع هناك؛ بسبب رد فعلها الوحشي تجاه مدنيين في عقاب هو ليس من جنس العمل، ومن طرف قسم من أبناء الشحيل أيضاً للسبب السابق، ولسبب آخر هو فقدان القرية شباباً يحرص أبناء القرية على سلامتهم؛ لما يتوسم الناس فيهم من خير من منظور العشيرة.

لم يكن متوقعاً من طرف أبناء المسرب رد الفعل العنيف هذا، وبعد الهجوم اعتبر أبناء المسرب أن من هاجمهم هم أبناء الشحيل القرية التي تمثل مركز جبهة النصر، فاتخذ الصراع طابع الصراع العشائري.²⁷

ولعلّ موطن القلق الأساسي بالنسبة إلى النصر كان قبيلة البكير (من فروع العكيدات الكبيرة) لأسباب عديدة منها عشائري؛ لأن البكير والبوكامل أبناء عمومة، وبسبب وجود فصائل جيش حر قوية في قرى البكير مثل لوائي القادسية والأحواز، وبسبب تحول قرى البكير إلى طريق دولي يربط تركيا بالعراق عبر هذا الخط الذي تمر منه المنتجات، وعلى رأسها المنتجات النفطية، وثمة عامل ساهم في تشكيل قرى البكير ثقباً أسود بالنسبة إلى النصر، وهو أن أول ظهور علني لداعش في المنطقة كان في قرية جديد عكيدات، وهي قرية من قرى قبيلة البكير.²⁸

ولعل كل هذا يفسر الخطأ الجسيم الذي ارتكبته النصر بدايات عام 2013، وتسبب في نفور مجتمع العشائر منها عندما شنت هجوماً على مقرات تنظيم الدولة في قرية جديد عكيدات، حيث موطن عامر الرفدان، وطردت أهله وتمكنه هو من الهرب، وهو هجوم فجرت فيه النصر منازل مدنيين من القرية، وهو ما سبب استياء ضمن أبناء عشيرة البكير تسبب في مواجهة بينهم وبين أبناء عمومته من قبيلة البوكامل في الشحيل التابعين للنصرة. قبل ذلك بقليل، كانت النصر قد شكلت هيئة شرعية في مدينة الميادين، وسعت إلى ضبط التحكم بآبار النفط، والحد من التلوث الناجم عن استخدام الوسائل البدائية في استخراج النفط، وفي الوقت نفسه شنت هجوماً على حقل العمر النفطي، أكبر حقول النفط في المنطقة الذي كان مقرراً لبعض فصائل النظام، وهو هجوم أنهى اتفاقاً بين العشائر التي يقع الحقل في أراضيها، وبين قوات النظام القائم على عدم التعرض لقوات النظام مقابل الاستمرار في إمداد القرى بالكهرباء التي ينتجها الحقل. وبعد ذلك طالب أبناء قرية

²⁷ مقابلة مع بعض الناشطين بتاريخ 15-8-2021.

²⁸ الحوار السابق.



ذبيان من عشيرة البوكامل والبو عز الدين (وهم فرع من العكيدات يتوزعون في قرיתי ذبيان والزر) بنصيب من نبط العمر الواقع في أراضيهم، وهو ما رفضته النصره. وهو رفض تسبب في انضمام العديد من أبناء ذبيان لداعش.²⁹

2- سيطرة تنظيم الدولة على دير الزور

بعد أن كان وجود داعش في المنطقه مقتصرًا على خلايا نائمة في مناطق محددة، أعلنت عن وجودها الصريح بانشقاق الرفدان عن النصره، وإعلان نفسه أميرًا للتنظيم في جديد عكيدات. وكان رفض النصره التبعية لداعش سببًا في اندلاع معارك، وكان معظم الرافضين لهذه التبعية قادة محليين للنصره؛ لأن في هذه التبعية خسارة للنفوذ والمكتسبات.³⁰

مرت حياة التنظيم المتطرف بمراحل مد وجزر، ففي البداية حاول التنظيم أخذ بيعة عام 2013 من القبائل بدعوة وجهاء من قبيلة البكير إلى اجتماع في قرية الحصين القريبة من معقلهم في الشداي على طريق دير الزور - الحسكة في منزل أحد وجهاء البكير هو تركي المقصي من فخذ العيد، وهو قريب لعامر الرفدان، وقد فوجئ المدعوون بوجود قيادات من التنظيم على رأسهم شخص يدعى أبا أسامة العراقي، يقال إنه ضابط سابق في الجيش العراقي، والذي عرض حماية القبيلة، وضمن أمنها مقابل أخذ البيعة. وقد حصلت مشادة بين شيخ قبيلة البكير عبد العزيز الحماده، وبين هذا القيادي بسبب رفض العرض، وهو ما يصلح عاملاً من عوامل عنف داعش مع العشائر.³¹

كان موقف داعش السلبي من القبيلة له جذوره في تجربتها في العراق الذي واجهت فيه بعد الاحتلال الأمريكي حركة الصحوات التي كان قوامها الأساسي من عشائر وقبائل العراق، ومن هنا يتبين الفرق بين سلوك النصره تجاه العشائر الذي كان ينحو نحو التطويع عبر التحالفات والتفاهمات، وبين سلوك داعش الذي كان ينحو نحو التطويع بالقوة، ولكن مع مراعاة بعض الاعتبارات القبلية التي قد تترد على التنظيم بالسوء.

²⁹ المقابلة السابقة.

³⁰ حوار عبر الهاتف مع ابن شيخ قبيلة البكير بتاريخ 8-8-2021.

³¹ حوارات متعددة مع أحد شيوخ البكير وناشطين آخرين بين 7-8 و 15-8 و 26-8-2021.



وقد كان داعش في بداية ظهوره غير قادر على مد نفوذه خارج حدود معقله في جديد عكيدات بسبب تحالفات بين قوى قبلية وفصائل عسكرية ضد داعش، من أبرزها تحالف لواء الأحواز من قبيلة البكير بقيادة (أبو اسحق) من أبناء فخذ الكبيصة من البكير مع الأحرار. وقد انسحب التنظيم بعد معارك عديدة تسبب فيها تصعيده وتأليب قبائل وفصائل ضده إلى معقله في الشداي، وصار يعتمد على خلايا يشكلها في المنطقة متبعًا أسلوبًا شبيهًا بأسلوب العمل السري، وكان انتقائيًا في تشكيله لأفراد هذه الخلايا الذين كان ينتقيهم من قاع المجتمع العشائري، ممن لا يأبه بهم أحد إلا على سبيل الاجتناب أو الاستعلاء، ومن بعض قيادات الجيش الحر الذين استطاع التنظيم اجتذابهم. وقد بدأت سيطرة داعش على المنطقة بعد معركة مركدة في ربيع عام 2014، وهي الملحمة الكبرى التي شكلت فيها الفصائل المختلفة مع جبهة النصر ما سمي بـ "مجلس شوري المجاهدين" تحالفًا ضد تنظيم داعش، وهي معركة قتل فيها ما يقارب 800 شخصًا، ويبدو أن داعش قد حشدت فيها خيرة مقاتليها، وتمكنت من إلحاق الهزيمة بأعدائها. ظلت البصيرة والصبحة والدحلة وهي قرى للبكير والمشاهدة والفليته والبقارة مواضع استعصاء في وجه هيمنة داعش، ولكن بمجرد تمكن داعش من السيطرة على البصيرة سقطت المحافظة في يد داعش. ولا يمكن إغفال الأثر النفسي الذي سببه سقوط مدينة الموصل العراقية في الفترة نفسها في نفوس خصوم داعش الذين يبدو أنهم وصلوا إلى قناعة أنهم ليسوا أندادًا لداعش. بعد سقوط البصيرة سيطرت داعش على الشحيل معقل النصر وفرضت على الأهالي التهجير إلى حدود حقل العمر وهو ما أدخل في روع أبناء الشيعيات نية داعش تهجيرهم.³²

والحادثة التي شكلت مفصلًا، وكان لها أثرها الكبير، ويتوقع أن أثارها لن تختفي في المدى المنظور، هي المجزرة التي ارتكبتها داعش بأبناء عشيرة الشيعيات، ففي منتصف 2014، وبعد سيطرة داعش تداول أبناء الشيعيات حول البقاء في المنطقة، أو الخروج منها، وقد استقر رأيهم على البقاء. كانت داعش قد طالبت أفراد الجيش الحر من أبناء الشيعيات بتسليم أسلحتهم، وقد قدح زناد الحرب دفاع أبناء الشيعيات عن آبار النفط في مناطقهم، وكان قسم من أبناء الشيعيات من الذين التحقوا بداعش هم الذين يلاحقون أبناء عموماتهم من

³² المرجع السابق.



الجيش الحر بدوافع لها صلة بنزاعات قديمة، وأحقاد متجذرة. ولما لم تفلح المفاوضات بين الشيعيات وداعش أقدمت داعش على الهجوم على الشيعيات، وارتكبت مجزرتها التي ستترك أثرها الذي يصعب أن يندمل.³³

يمكن تصنيف تعامل داعش مع القبائل تصنيفًا ثلاثي المستويات:³⁴

- تحالف مع قبيلة البكير عن طريق عامر الرفدان المذكور سابقًا الذي أصبح فيما بعد أميرًا بارزًا من أمراء داعش، وقد استغل الرفدان نقمة البكير عقب الهجوم الذي شنته النصره وموالوها من البوكامل في الشحيل، وتسبب في قتل وجرح وتهجير مدنيين من قرية جديد عكيدات.

- تحالفات سرية مع أفراد من خصوم جبهة النصره من قبائل وفصائل مختلفة، ومن أبرز أمثلة هذا المستوى التحالف مع المدعو صدام الجمل قائد لواء الله أكبر في البوكامل، وهو شاب من مدينة البوكامل من أصول عراقية كان يمتن تهريب الدخان، وخلال الثورة عمل في تهريب السلاح، وكان ينتمي إلى لواء أحفاد الرسول. وقد قتلت النصره إخوانًا له، فانتمى إلى داعش، وانتقم من كل شخص اعتقد أنه ساهم في قتل اشقائه بعد أن أصبح أمير البوكامل. وحسام الشلوف قائد لواء صدام حسين في الميادين، والذي استهدفت النصره منزله بسيارة مفخخة.

- تحالفات سرية مع مجموعات قبلية تسعى للعب دور أكثر بروزًا مثل قبيلة البوعز الدين في قرية الزر تحت قيادة "أبو دجانة الزر"، وكان مقاتلًا بارزًا دمويًا في صفوف الجيش الحر في مدينة دير الزور التي عانت من التهميش تحت سيطرة جبهة النصره، حيث عيّنت تنظيم الدولة الإسلامية أبا دجانة قائدًا عسكريًا في معارك دارت ضد فصائل جبهة النصره في المنطقة.

ج- قسد وسيطرتها على خط الجزيرة في ريف دير الزور

قبل محاولة سبر غور علاقة (قسد) بالمجتمع القبلي في ريف دير الزور، لا بد من الإشارة إلى أن النزوعين القوميين: الكردي الذي يسم (قسد)، والعربي الذي يصبغ

³³ المرجع السابق.

³⁴ TRIBES AND THE RULE OF THE "ISLAMIC STATE": THE CASE OF THE SYRIAN CITY OF DEIR EZ-ZOR, OP.CIT., P. 35-36



القبيلة، ناجعان في شرح جزء من المشهد الذي تتوخى الدراسة سبر غوره. فالقومية لا تنطوي بالضرورة على نزعة عنصرية، ولكنها تحمل قابلية الانطواء عليها، إذا استحالَت إلى قومية رسمية يشتغل على ترسيمها صنّاع أيديولوجيون، فيمسخون بقوالبهم الأيديولوجية دافعها العفوي الذي يستمد عفويته في الدرجة الأولى من ارتباطه باللغة³⁵. وقابلية تحوّل القومية إلى عنصرية تصبح ممكنة أكثر، إذا قامت على أيديولوجيا الطبقة، وليس على أيديولوجيا الأمة³⁶. والشرطان متحققان في حالة (قسد)، فارتباطها -بحزب الاتحاد الديمقراطي، وبأصله حزب العمال الكردستاني- يجعل الأدلجة واقعًا كفيلاً يجعل الرسمية محمول قوميتها، كما أن الجذر الماركسي اللينيني الذي يمثل المنطلق النظري للحزب الأمّ يحتوي -بطبيعة الحال- على أيديولوجيا الطبقة، وإن كانت تهويماً أيديولوجياً، فاقداً لشروط تحققه الموضوعية³⁷.

كما أن فهم سلطة (قسد) يتطلب فهم علاقة هذا الكيان بالواقع القبلي في المنطقة المدروسة، وهي علاقة تتخذ -حسب الأدلة التي توفرت لدى الباحث- أسلوبين³⁸: الأول هو أسلوب القسر بوسائل أمنية بوليسية، والثاني هو أسلوب الحز الذي يقوم على الإغراء بالمكافآت، ولكنه حض يؤول في النهاية إلى القسر؛ لأنه يستغل حاجة المحكوم أو يهدّده بقطع ما يقدّم له.

على الرغم من أن معظم الموظفين في الإدارة هم من العرب، ونسبتهم نحو 90%، فإن هؤلاء مقصون عن المشاركة في صنع القرار، فالقنديلون هم أصحاب القرار، وكل العاملين في الإدارة من العرب، وإن سلّموا مواقع مهمة، لا يشاركون في القرارات المهمة. أما الكوادر الكردية، فإنها هي التي تحدد الميزانيات للمشاريع،

³⁵ للمزيد عن علاقة القومية بالعنصرية، انظر: بندكت أندرسون، الجماعات المتخيلة، ترجمة ثائر ديب، بيروت، قدمس للنشر والتوزيع، 2009، ص. 143 وما بعدها.

³⁶ المرجع نفسه.

³⁷ كانت الأحزاب السياسية الكردية التي سيطرت على المشهد السياسي الكردي منذ خمسينيات القرن الماضي قد تشكلت من أغوات (ملاك الأراضي) ومن مهنيين حضريين، كانوا يمثلون وسطاء بين الأنظمة السياسية وبين الطبقة الوسطى الحضرية في المجتمعات الكردية، وقد لقيت ماركسية أوجلان ترحيباً لدى أبناء المدن الصغيرة والقرى المستائين من هيمنة النخب الحضرية على المشهد السياسي، ولكنهم لم يكونوا يمتلكون القوة الكافية لتحديها، وهو ما جعل حزب أوجلان جاذباً للطلاب الفقراء من الأرياف. انظر:

The PKK's Fateful Choice in Northern Syria, international crisis group, REPORT 176 / MIDDLE EAST & NORTH AFRICA 4 MAY 2017.

وبناء على هذا، فإن ما يسمى بأيديولوجيا الطبقة لا تعبر عن طبقة لذاتها في حالة حزب العمال، وإنما عن طبقة بذاتها في أحسن الأحوال حسب التصنيف الماركسي الشهير، فهي لا تعي ذاتها كطبقة متبلورة.

³⁸ مقابلة مع المحامي ع. م من المقيمين في المنطقة بتاريخ: 4-10-2022..



وهي تفرض بالقسر قرارات على موظفيها العرب³⁹. وعلى الرغم من وجود قيادات عسكرية في (قسد)، مثل أحمد الخبيل⁴⁰ و خليل الوحش⁴¹، فإن أمثال هذين من القيادات العربية ليسوا إلا واجهات تآمر، في القرارات المفصلية، بأمر القيادات الكردية⁴².

على الرغم من الزعم بالانتقال من أيديولوجيا حزب العمال الكردستاني باتجاه الأيكولوجيا الاجتماعية⁴³، فإن كل المؤشرات تشير إلى استمرار السلطوية سمة أساسية لنظام الإدارة الذاتية⁴⁴، فلا يزال الكرد مهيمنين على القرار في هيئات الإدارة ومكاتبها، وما زال الهاجس الأمني هو المحور الأساسي الناظم لعملها، بذريعة ضرورة ذلك في ظل المخاطر التي تحق بالتجربة، وبذريعة ضرورة حماية التجربة الديمقراطية الوليدة وهي في طور نموها.

ولم تكن إدارة قسد للقطاعات الحيوية إدارة كفيلة بالشروع في تنمية حقيقية، فقد استغلت الثروة النفطية استغلالاً يصب في مصلحة مراكمة ثرواتها بتهريره إلى مناطق الجزيرة ذات نسبة الأكراد الكبيرة، وإلى كردستان العراق. كما عانى القطاع الزراعي من إهمال تمثل في قلة الدعم المقدم له من سماد وبذار ووقود، فضلاً عن رداءة ما تقدمه من مواد. والأمر نفسه ينسحب على قطاع الصحة الذي اعتمدت فيه قسد على ما تقدمه المنظمات الدولية، وجعلت بيروقراطيتها من تلبية طلبات المشافي والمستوصفات عملية شديدة البطء. وفي قطاع التعليم اعتنت قسد بالدرجة الأولى بمحاولة فرض مناهجها التي لاقت معارضة شديدة من الأهالي؛ لما تحويه من أفكار تخالف معتقدات أهالي المنطقة وقيمهم⁴⁵.

³⁹ في حادثة يرونها أحد المستجيبين للبحث، اعترض رئيس هيئة الاقتصاد، وهو عربي من أبناء المنطقة، على حصة الطحين المقدمة لديبر الزور، وكان الاعتراض بسبب أن هذه الحصة أقل من الحصة المقدمة للرفقة بستة اضعاف، فاتصل به المسؤول عن التطوير الزراعي وأجبره على التوقيع باستلام الحصة بدون اعتراض.

⁴⁰ وهو فرد من البكير من فرع الخضير، كان في بداية الثورة قد شكل مع شقيقه الأكبر فصيلاً عسكرياً، عمل في النهب وقطع الطريق، ويجمع من يعرفونه على أنه وشقيقه شخصان سيئا الذكر قبل الثورة وأثناءها. هرب من داعش بعد فتحها لمخيمات فساد، ثم عاد مع (قسد) وهو الآن رئيس المجلس العسكري في (قسد).

⁴¹ من قبيلة البكار، كان عنصراً بارزاً في لواء القادسية أحد ألوية الجيش الحر، وهو من قرية الصالحية، هرب من (داعش) وعاد مع (قسد)، وهو الآن موجود في جديد بكارة، ويشغل منصب نائب رئيس المجلس العسكري.

⁴² مقابلة مع الصحفي عمر خطاب بتاريخ: 9-11-2022، ومقابلة مع المحامي (ط.م) من أبناء المنطقة يقيم في مناطق سيطرة (قسد) بتاريخ:

⁴³ يتحدث أوجلان عن الأيكولوجيا الاجتماعية بحسبانها مع النسوية والحركات الفامينية والحركات الإثنية الثقافية كنوافذ نحو عوالم جديدة، وفتح لمرحلة جديدة نحو تعددية الحقيقة وبناء مجتمع على مستوى المجموعات. انظر: عبد الله أوجلان، المدنية، ترجمة زاخو شيار، مطبعة آزادي، ط.3، 2018، ص. 39.

⁴⁴ سنان حتاحت، الاقتصاد السياسي للإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا، (فلورنسا، معهد الجامعة الأوروبية، مركز روبرت شومان للدراسات العليا، 2020)، ص. 5.

⁴⁵ للمزيد حول سياسات قسد في منطقة القبائل في شرق سورية انظر: مناف الحمد، تأثيرات سلطة الغدارة الذاتية في المجتمع القبلي: ريف دير الزور نموذجاً، مركز حرمون، 2022 /5/12، <https://2u.pw/oLxDzF>



إن كل ما سبق زرع بذور تمرد ضد قسد، كان تحولها إلى تمرد حقيقي يحتاج إلى شرارة، جسدها سلوك قسد الأخير الذي استفز قسماً من أبناء المنطقة، فاندفعوا في "فزة عشائرية" للمواجهة.

د- تمرد القبائل الأخير

في الخامس والعشرين من شهر آب/أغسطس الماضي، أقدمت قسد على اعتقال رئيس المجلس العسكري التابع لها المدعو أحمد الخبيل الذي ينتمي إلى قبيلة البكير، وكان للاعتقال أسباب ظاهرة، فالخبيل الذي هرب من داعش عند سيطرتها على المنطقة، عاد مع قسد، وتولى منصب رئيس المجلس العسكري الذي شكلته الأخيرة. عبر سنوات خمس كبر نفوذه، وأصبحت قواته من الأفراد تتجاوز بضعة آلاف، كما جمع ثروة طائلة من الحصة التي منحتها إياها قسد من الثروة النفطية. ولم يكن الخبيل ليغفل عن إمكانية استثمار نفوذه المتعاظم لكي يصبح نذاً لقسد، فدعا بشيوخ القبائل في المنطقة إلى مبايعته كأمر للبكير، ولم يكتف بذلك، وإنما طلب منهم بعد فترة مبايعته كأمر لقبيلة الزبيد التي تمثل القبيلة الأم لمعظم العشائر في المنطقة وفي العراق.⁴⁶

نفوذ الخبيل المتزايد، وطموحه الذي لم يخفه جعله خطراً محدقاً بتفرد قسد بالسيطرة، وخصوصاً أن نسبة من أبناء القبائل وشيوخها -على الرغم من عدم رضاهم عن سلوكه- نظروا إليه كرمز لمكون عربي قادر على الحد من نفوذ قسد. لم تقف قسد صامتة أمام تزايد قوة الخبيل، فطلبت من عناصرها إزالة حواجز قوات الخبيل العسكرية، وطلبت من عناصرها إطلاق النار على من يقاوم، وقد حدث فعلاً إذ قتلت عناصر قسد فردين من عشيرة البكير تابعين لقوات الخبيل، وهو ما رد عليه الخبيل بعنف، فقتل وأسر عدداً من قوات قسد، وكادت الأمور تخرج عن السيطرة لولا تدخل قوات التحالف التي عقدت صلحاً بين قسد والخبيل.⁴⁷

⁴⁶ انظر انتفاضة العشائر في شرق سورية، تقدير موقف، مركز حرمون، 2023 / 11/09، <https://2u.pw/i35mN6K>

⁴⁷ المرجع نفسه.



ما جعل الأمور تأخذ منحًا آخر، هو إعلان الخبيل في اجتماع ضمّه مع مسؤولين من قسد وقوات التحالف عن استعدادة للقتال مع قوات التحالف إذا شنت حربًا على الميليشيات الإيرانية الموجودة في المنطقة، وهو ما أثار حنق القسديين الذين تربطهم علاقات جيدة مع إيران.⁴⁸

دعا مظلوم عبيد المسؤول في قسد أحمد الخبيل، وبعض القادة العسكريين في المجلس العسكري إلى اجتماع في الحسكة، وهو ما لباه الخبيل الذي لم يكن يتوقع أن الاجتماع ما هو إلا كمين نصب له، حيث اعتقلته قسد مع بعض القياديين الذين أطلق سراحهم لاحقًا، وهو ما جعل بعض الناشطين يؤكدون أن بعض هؤلاء كانوا شركاء لقسد في الكمين الذي نصب للخبيل.⁴⁹

احتج أبناء عشيرة الخبيل أولًا على اعتقاله، وأعلنوا التمرد على قسد التي أرسلت تعزيزات كبيرة إلى المنطقة، ولكن التمرد امتد إلى أجزاء كبيرة منها، إذ يبدو أن ما راكمته قسد بإجراءاتها القاسية قد جعلها تنتظر شرارة للانفجار.

تطورت الاشتباكات العسكرية، واتسعت رقعتها، وتعددت الأطراف المشاركة بها، وبدأت المعارك معتمدة على المصابرة، بسبب الفارق الكبير بين قوات قسد المنظمة، والمسلحة تسليحًا حديثًا وثقيلًا، وبين قوات العشائر غير المنظمة، والتي لا تملك إلا سلاحًا خفيفًا. وقد وقع معظم الثقل في المواجهة مع (قسد) على عاتق عشيرة البكير من قبيلة العكيدات، ثم إلى حد ما عشيرة البوكامل من ذات القبيلة، وكان الدعم الميداني من طرف باقي فروع العكيدات، والعشائر الأخرى الموجودة في خط الجزيرة شكليًا⁵⁰، فثمة عشائر أخرى من العكيدات مثل الديميم والحسون لم يشاركوا، بل إن أغلب عناصر الشيعيات المتطوعين في قسد قاتلوا معها، وقد بقيت مناطق عديدة بعيدة عن أي اشتباكات مثل هجين والباغوز. وكانت مجموعات من قبيلة البكاره قد شاركت في مواجهة (قسد) بطرد حواجز لها من قرى مختلفة من قرى القبيلة. كما كان للبكاره دعم معنوي لمقاتلي العشائر من العكيدات، حيث أصدر حاجم البشير، الشخصية القبلية الأبرز في القبيلة اليوم، بيانًا أيد فيه انتفاضة العكيدات، وأعلن أن قبيلته تقف مع العكيدات يدًا بيد⁵¹.

⁴⁸ المصدر: مقابلة مع الباحث خطاب العواد من أبناء مدينة البوكامل بتاريخ: 28/8/2023.

⁴⁹ مقابلة مع أحد وجهاء قبيلة البكير، بتاريخ 2023 /6/09. وفيديو يظهر فيه أبو الحارث قائد مجلس هدين العسكري الذي كان معتقلًا مع أحمد الخبيل، وهو يعلن اشتراكه في القتال مع قوات (قسد)، بعد إطلاق سراحه. <https://web.whatsapp.com>

⁵⁰ المقابلة السابقة مع شيخ البكير، والمقابلة السابقة مع الباحث خطاب العواد.

⁵¹ بيان الشيخ حاجم البشير على الرابط: <https://www.youtube.com/watch?v=MSx0vUdP6wk>



وليس الانقسام أمراً صعب التفسير، فمجتمع العشائر مجتمع متشظٍ بسبب ما تعاقب عليه من أحداث، ومن الطبيعي أن تختلف مواقف أفراده بين مؤيد لقسد، ومؤيد للنظام، ومناصر للثورة على النظام وعلى قسد.. وفي قرى معينة لم يكن موقف الرضوخ للأمر الواقع مقترناً بعهد (قسد)، وإنما كان موقفاً قديماً ظهر مع انطلاقة الثورة السورية، فبعض هذه القرى لم تنخرط في الثورة عن قناعة لدى أهلها بأفضلية النظام. ومن صور عدم وحدة الصف القبلي كذلك اشتراك قسم من أبناء قبيلة الشعيطات التي تتحدر من قبيلة العكيدات في القتال في صفوف قوات (قسد)، والتزام آخرين منهم الحياد⁵². وليس الانقسام في المواقف ملاحظاً بين فروع القبائل، بل يتعداه إلى انقسام داخل العائلة الواحدة أحياناً، فجميل الهفل، عم الشيخ مصعب الهفل شيخ العكيدات المقيم في قطر، معروف بعلاقاته الجيدة مع (قسد)⁵³.

ومن المهم الإشارة إلى أن المواجهة مع (قسد) لم تقتصر على منطقة دير الزور، بل تعدتها إلى مواجهات معها بادر إليها أبناء عشائر دير الزور الموجودون في تركيا، ومقاتلون في الجيش الوطني من أبناء عشائر دير الزور الذين هاجموا مواقع ل (قسد) في محيط منبج، ورأس العين، وتل تمر؛ من أجل تخفيف العبء عن مقاتلي العشائر في المنطقة.⁵⁴

وكان الحليف التركي المعادي لقسد قد فتح الأبواب أمام بعض أبناء العشائر المتطوعين فيما يسمى الجيش الوطني في الشمال السوري للذهاب إلى القتال في منبج وتل تمر في القامشلي، ومناطق أخرى تحكمها قسد لرفع بعض العبء عن مقاتلي القبائل في دير الزور بمشاغلة قسد في أماكن أخرى، وكان هذا السماح لهم مشروطاً بالقتال تحت راية العشائر، وليس تحت راية أي فصيل آخر. ولم يكن الحليف التركي ليستطيع فعل أكثر من هذا؛ بسبب حدود رسمتها اتفاقيات دولية.⁵⁵

تمكنت قسد بعد أقل من أسبوعين من الانتصار في المعركة، وأحكمت سيطرتها على مناطق عشيرة البكير، والبوكامل، وباقي المناطق، ثم بدأت بحملات اعتقال واسعة، وقد كانت تلك نتيجة طبيعية للفرق في ميزان القوة، وللدعم الذي تتمتع به

⁵² مقابلات متعددة مع ناشطين من أبناء القبائل، بتاريخ: 5-6/09/2023..

⁵³ مقابلة سابقة مع أحد وجهاء قبيلة البكير.

⁵⁴ انتفاضة العشائر في شرق سورية، تقدير موقف، مركز حرمون، مرجع سابق

⁵⁵ المرجع نفسه.



قسد من طرف التحالف الدولي. ويجري الحديث الآن عن تنازلات قد تقدمها قسد لتلبية بعض المطالب لأبناء القبائل، ولكنها تنازلات لا تتضمن الانسحاب من المنطقة، ولا التخلي عن الثروة الكبيرة التي تؤمنها حقول النفط فيها.⁵⁶

وليس ثمة شك في أن ما جرى قد هزّ صورة قسد، وجعل التجاسر عليها ممكنًا في الأيام المقبلة، وهو قد يتخذ شكل حروب العصابات، وخصوصًا في ظل وجود داعش التي أعلنت عن طريق بعض معرفاتها استعدادها للقتال ضد قسد منذ بدء الاشتباكات⁵⁷، وهو ما قد يدفع بعض أبناء القبائل إلى الانضمام إلى قوات داعش.

ولعل المستفيد الأكبر مما جرى هو إيران التي لا يستبعد أن تكون هي المحرصة لقسد على اعتقال الخبييل، واستفزاز العشائر باعتداءات أخرى، وقذح شرارة الاحتجاجات، لكي ترسل رسالة على قوات التحالف فحواها أنها تقف على أرض هشة، وأنها هي الفاعل الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه لتحقيق هذا الاستقرار.

خاتمة

كما ذكرنا في المقدمة، فإن تناول واقع القبيلة -لا بد لكي تكون منتجًا- أن يكون مستندًا إلى فهم التحولات التي طرأت على بنيتها، وهي تحولات أحدثت تغييرات في تلك البنية، وجعلت من التعاريف الاستاتيكية قاصرة عن فهمها فهمًا عميقًا، ولعل أبرز ما نتج عن هذه التحولات هو الإجهاد الذي تعرضت له القبيلة في منطقة الدراسة، وهو إجهاد يفوق الطاقة، بدأ يتفاقم منذ قوانين الإصلاح الزراعي المتعددة، مرورًا بسياسات أنظمة البعث المختلفة، وصولًا إلى القوى التي سيطرت على المنطقة، والتي توجت بسيطرة قسد.

وليس بدعًا القول إن فهم البنية متعذر من دون فهم العلاقات بين عناصرها من جهة، والعلاقات مع محيطها من جهة أخرى، وهي علاقات تبدلت عبر السياقات المختلفة، فبينما كان ترابطها العضوي سمتها البارزة في مرحلة ما، ضعف هذا الترابط في مرحلة أخرى، وبينما كانت العلاقات بين رموزها وأفرادها علاقات من دون وسيط، توسط هذه العلاقة في مرحلة من المراحل أجهزة حزبية وأمنية

⁵⁶ مقابلات متعددة مع ناشطين من أبناء المنطقة بتاريخ: 11-12 / 09 / 2023.

⁵⁷ مركز نور ايست للأبحاث، تقدير موقف، تحولات قسد في دير الزور وأفق المرحلة القادمة، <https://2u.pw/NDc8Q99>



للنظام الحاكم. وقد أصبحت بسبب ارتخاء روابطها كياناً قابلاً للاختراق، أعملت فيه مباحثها قوى مختلفة في الثورة السورية، ثم تحولت إلى كيان خاضع لاحتلال مدعوم من قوى مختلفة.

إن البنية القبلية بنية قبل وطنية بلا شك، ولكن التعاطي مع هذه البنية بقصد الارتقاء بها إلى بنية أمس رحماً بالمدينة إنما يكون باختراق سياسي اقتصادي كفيل بتفتيق وعي افرادها، وتكريس مفهوم الفردية، وهو ما يمكن أن يتطلب زمناً طويلاً يجعل من شبكة الثقة هذه -على حد تعبير تشارلز تلي-⁵⁸ شبكة قابلة للاندماج في النظام السياسي عبر وسطاء يبحثون عن تحقيق مصالحها التي تجدل مع المصلحة الوطنية، وليس عبر دعوات لمتغربين تطالب بحلها من دون النظر إلى مآلات هذا الحل، في سياق لا يجد فيه الفرد القبلي غطاء يتدثر به سواها. وقد يدفعه تركه عارياً إلى اللواذ بالقوى المتطرفة التي قد يجد في حقلها التداولي ما هو الأقرب إلى مفاهيمه وتصوره للعالم.

*مناف الحمد باحث سوري مهتم بالفكر الليبرالي والثقافة الاسلامية. لديه العديد من الأبحاث والمقالات المنشورة في مجلات ومواقع عربية. صدر له مؤخراً كتاب (في الليبرالية أصولها، تحولاتها وعلاقتها)، عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود.

⁵⁸ للمزيد حول شبكات الثقة التي تعيق التحول الديمقراطي انظر: تشارلز تلي، الديمقراطية، ترجمة محمد فاضل طباطخ، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2010، ص. 141.



المراجع

بالعربية

- (1) أندرسون، بندكت، الجماعات المتخيلة، ترجمة ثائر ديب، بيروت، قدمس للنشر والتوزيع، 2009.
- (2) أوجلان، عبد الله، المدنية، ترجمة زاخو شيان، مطبعة آزادي، ط.3، 2018.

بالإنكليزية

- 1- Kulit al-Khuri, layla wahida, Beirut: al-Maktabal al-Tijari, 1961
- 2- P. Bourdieu, outline of a Theory of Practice, translated from French by Richard Nice, Cambridge: Cambridge University Press, 1977
- 3- Richard T. Antoun; Donald Quataert, Syria: Society, Culture, and Polity, State University of New York Press, Albany, NY, 1991
- 4- Rudayna Al-Baalbaky, Ahmad Mhidi, TRIBES AND THE RULE OF THE "ISLAMIC STATE": THE CASE OF THE SYRIAN CITY OF DEIR EZ-ZOR, Beirut, Issam Fares Institute for Public Policy and International Affairs, 2018
- 5- S. M. Kaylani, "The Role of Agriculture in the Development of Syria, 1945-1960" (M. A. thesis, -5 American University of Beirut, 1964
- 6- The PKK's Fateful Choice in Northern Syria, international crisis group, REPORT 176 / MIDDLE EAST & NORTH AFRICA 4 MAY 2017

مواقع الانترنت

- 1- الحمد، مناف، تأثيرات سلطة الغدارة الذاتية في المجتمع القبلي: ريف دير الزور أنموذجًا، مركز حرمون، 2022 /5/12، <https://2u.pw/oLxDzF>
- 2- الحمد، مناف، القبيلة والسياسة في سورية، مركز حرمون، 1/11/2021، <https://2u.pw/hFnHMP>